مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
Eissn :2600-6421 Issn : 2353-0464
المجلد 4 / العـدد: 03 (2016)، ص 73 - 98

الإعلام في فكر مالك بن نبي: مقاربة استقرائية

د. عبد الرحمن عزي
جامعة الشارقة

تعتبر هذه الدراسة قراءة استقرائية (inductive) في العلاقة الكامنة والضمنية بين فكر مالك بن نبي، يرحمه الله، و الإعلام[1] في المنطقة العربية الإسلامية أو ما يسيمه بمحور طانجة –جاكرتا، ذلك أن ابن نبي لم ينظر إلى الإعلام بوصفه مجال نظري مستقل بقدر ما يمثل أداة تبليغية حرفية إذ لجأ نفسه إلى المقالة الصحفية[2] قصد مخاطبة القارئ بما كان يعتبره أزمة ثقافية و حضارية بالمنطقة.

توفي مالك بن نبي يرحمه الله في فترة[3] لم تكن فيه الفضائيات قد اكتسحت "المجال العام" في المحور المذكور، ثم أن تكنولوجيا الاتصال و الإنترنت لم تنفذ بعد إلى الحيز الشخصي والجو "النفسي الاجتماعي" بالشكل الذي نشهده الآن، غير أن قراءته "المتبصرة" لحال الأمة في تلك الفترة أقرب ما يكون من واقع الحال الآن و الذي يشهد التحول من حالة "الركود" التي شخصها ابن نبي بدقة إلى ما يمكن اعتباره تفكك تتابعي بإسهام إعلامي[4] في سياق "دورة الانحدار الحضاري."[5]

فالأزمة في الرقعة الإسلامية حضارية قبل أن ترتد في المجال السياسي والاقتصادي و التربوي و ما يهمنا في هذه الدراسة "الإعلامي." و إذا فإن مسألة الإعلام

---

[1] كنت قد تناولت العلاقة بين فكر ابن نبي و أطروحة "دانيال لرنر" في ما يسمى بالإعلام التنموي في المنطقة في دراسة لنا باللغة الإنجليزية، و لخص د. السعيد بومعيزة جزءا منها في دراسة له قيد النشر في مؤلف: قراءات في نظرية الحتمية القيمية الإعلامية Abderrahmane Azzi, Developmental Communication: Lerner's Typology Revisited, *Journal of Global Communication*, Fall, 2004.

[2] معظمها في مجلة الثورة الإفريقية (باللغة الفرنسية) و التي ترجمت و نشرت في "بين الرشاد و التيه" و "من أجل التغيير."

[3] توفي يرحمه الله في 31-10-1973 بالجزائر

[4] لم يدرس ابن نبي الإعلام بشكل مباشر و إنما فكره يلمسه وله بعض الأقوال على الإعلام وإن كانت محدودة بالمقارنة.

[5] د. عبد الرحمن عزي، دورة الانحدار الحضاري في المنطقة العربية الإسلامية: قراءة في الحاجة إلى بوادر فردانية نهضوية جديدة، دراسة قيد النشر.

بالمنطقة حضارية بالدرجة الأولي. و بتعبير آخر، تكون الحضارة المتغير المستقل، والإعلام أحد المتغيرات التابعة في هذه المقاربة.

ولعل هذا التناول الحضاري يستدعي بعض التوقف عن الدلالة الذي يتضمنها مفهوم ابن نبي عن "الحضارة." إن قراءة تأويلية في نص ابن نبي تظهر عناصر متداخلة تشكل ما يسمى "بالتركيبة الحضارية:"

أ) أن "الحضارة" تشير إلى "الجماعة التاريخية" التي تتشكل في ارتباطها الأساس بالمعتقد على النحو الذي نجده في تعبير الحضارة الإسلامية، أو المسيحية أو البوذية أو البرهمية، الخ. و يتفق هذا الطرح مع عدد من دارسي الحضارات في الغرب أمثال أرنولد طوينبي[6] وصامويل هانتغتون[7] إذ اعتبر هؤلاء على اختلاف مشاربهم أن المعتقد هو المحرك الأساس الذي يمكن أن يرقي بأي مجتمع إلى منزلة "العالمية." أما المجتمعات التي تتأسس على "متغيرات ديمغرافية" فحسب من مثل القومية و الوطنية و القبلية و اللغوية والخبرة المشتركة، الخ. فنفهم من ذلك أنها ثقافات نسبية و "محلية" لا ترقي إلى مستوى الحضارة.

ب) أن الحضارة تتحق إذا كانت هناك صلة "حقيقية" بين "مثل" (بضم الميم و الثاء) الحضارة (المبررات في لغة ابن نبي) و السلوك في شتى مناحي الحياة. أما إذا كان هذه الصلة مفقودة (أو غير ترابطية[8] في تعبيرنا)، تصبح تلك الحضارة "عاطلة" أو خارج التاريخ على النحو السائد في الرقعة الإسلامية منذ، و في تعبير بن نبي، مرحلة ما بعد الموحدين.

ت) أن الحضارة "شحنة نفسية اجتماعية" أو "حالة تاريخية حاسمة" إن تحققت جمعت و استوعبت الطاقة الكامنة في المجتمع و دفعتها إلى إنجاز مبررات الحضارة، وإن غابت تشتتت هذه الطاقة و انطفأت و أفلت و خرجت من المعادلة الاجتماعية التاريخية.

---

[6] وإن كان هذا الأخير يضفي عليها البعد الجغرافي مثلما يرد في نقد ابن نبي لذلك.

[7] في كتابه المعروف حديثا: صراع الحضارات

[8] انظر تعريفنا للثقافة في:

ث) أن الحضارة تتضمن "بشكل متوازن"[9] المعنوي (مشار إليه بالإرادة الحضارة) والمادي (مشار إليه بالإمكان الحضاري). و مما ساهم في إبطال مفعول الحضارة في الرقعة الإسلامية انكماشها وعجزها على الانتقال من الإرادة إلى الإمكان.

ج) أن الحضارة تركيب من العناصر الثلاث المعرفة في فكر ابن نبي: الإنسان و التراب والزمن و التي قد تكون أدوات فاعلة أو عاطلة وفق معادلة الصلة مع الشحنة أو الحالة المرتبطة بمبررات الحضارة.

إن مفهوم "الحضارة" عند ابن نبي يأخذ أبعادا عدة ولكنه يصب في اتجاه محدد و يتعلق بدور المبررات في أي إقلاع حضاري. و نجده يسعى باستمرار إلى إعادة تشكيل المفاهيم الأخرى المحيطة وفق هذه الرؤية.

فالثقافة[10] في نظره و في الأصل بنية حضارية إن صح هذا التعبير، وهي لا تتلخص في الأنماط و الطرائق الذي تقدم بعض الأدوار الوظيفية "الأنثروبولوجية" في المجتمع و لكنها تمثل "الجو" الذي يحرك أو يبطل حركة الانسان في اتجاه الرقي إلى مستوى الحضارة. فالثقافة ذلك "الجو المتكون من ألوان و ألحان و نغمات و روائح وسكنات و أضواء، ومن جوانب مظلمة، إنها هذا الجو كله الذي تتفتح فيه النفس، وتشعر بوجودها في إطار عام."[11] وهو يشير، ولإعطاء الموضوع الطابع الإثاري المستنير، إلى مقولة الفرنسي "إدوارد هوريو" "بأن الثقافة هي "ما يبقى عالقا بالأذهان عندما ننسى ما تعلمناه على مقاعد الدراسة و الجامعات." وفي هذا السياق، فإن ابن نبي يميز بجلاء بين الثقافة و العلم[12]، فاعتبار الثقافة "علم" يكتسب (بضم الياء) يفقد الثقافة "نسبيا ثلاثة أرباعها أو 75% من مجالها."[13] فالعلم، على النحو الذي تطور وفق مباديء ديكارت، تخلص من عنصر "المبررات،" ذلك الاتجاه الفكري الذي كان يمكن أن يؤسس

---

[9] إذ يرى أن التحربة الحضارية الغربية بالغت في الامكان و ابتعدت مع الزمن عن الإرادة و ذلك ما يحمل بذور تفككها

[10] تعبير يعتبره مالك بن نبي دخيل بعض الشء ومترجم من كلمة (culture) و قد تم استعماله في الغرب لدراسة أوضاع حقيقية من نتاج الحضارة نفسها، أما عندنا فكأنك تريد وصف شيء غير قائم بفقدان الصلة مع الحضارة

[11] مالك بن نبي، مجالس دمشق، تقديم عمر مسقلوي، دار الفكر، دمشق، 2005، ص. 106

[12] لعل ابن و بحكم اختصاصة في الهندسة الكهربائية يشير إلى العلوم الطبيعية و التقنية، أما العلوم الانسانية و الاجتماعية فتحمل في طياتها الخلفيات الحضارية بأشكال متعددة

[13] ن.م. س.، ص 96

العلم بطريقة أخرى، و اختص بالأساس بالإجابة على سؤال كيف؟ وليس لماذا؟ فالعلم في نظره اتخذ طابعا محايدا على النحو المذكور. وكنت قد عالجت هذه النقطة في سياق مماثل فأشرت إلى أن التكنولوجيا بذاتها قد تكون عاملا محايدا ولكن التكنولوجيا قد تنشئ عقلية تقنية وهو أمر غير محايد، فالكفاءة التقينة بدون كفاءة قيمية يعطل عملية الحركة الحضارية الواعية.[14] و يعيد ابن نبي أحد عناصر "الركود" الحضاري في الرقعة الإسلامية جزئيا إلى الاعتقاد بأنه يمكن الحصول على الثقافة (وربما حصرا) بواسطة التعليم. وفي نظره، "فإن العلم الذي نتعلمه و نعلمه لأولادنا في المدارس والجامعات[15] لا يؤدي وظيفة الثقافة،[16] أو بعبارة أخرى لا يقدم المبررات الاجتماعية للأفراد و لا للمجتمع."[17]

و في فكر ابن نبي، فإن الثقافة عملية أو قل انخراط اجتماعي بالدرجة الأولى. وهذا الطرح يجعله أقرب إلى عالم اجتماع على نهج ابن خلدون. وفي نظره، فإن العلاقات الاجتماعية تتشكل بالأساس علي أسس حضارية تجعل الفرد يؤدي مسؤليته

---

[14] Abderrahmane Azzi, Developmental…..

[15] لعله يشير في ذلك إلى العلوم الطبيعية وحتى الاجتماعية التي تشكلت عندنا وفق النموذج الغربي. و قد وجدت هذا الوعي بضرورة ربط العلم بالمبررات الحضارية قائما في عدد من المؤسسات الجامعية بماليزيا، فمثلا تدرس العلوم الاجتماعية بجانب العلوم الشرعية في كلية واحدة تسمى "كلية معارف الوحي و العلوم الاجتماعية"

[16] وإضافة إلى المثال الذي أوردة بن نبي عن الطبيب المسلم والطبيب اليهودي،[16] أذكر مثالا مشابها عن أثر الثقافة الضمني "والمسكوت" على السلوك. فقد درست في بلد غربي ولم يحدث أثناء تدريسي ثلاث سنوات متتالية أن حدثني أي طالب عن علامته في المساق (أي المقرر)، بينما وعندما انتقلت إلى بلد عربي و بمجرد الانتهاء من الاختبار (الامتحان الأول) وجدت طابورا لا بأس به من الطلبة يطلبون إما المساعدة ومراعاة ظروفهم الاجتماعية أو الجدل في طريقة تقييم إجاباتهم أو القول بأنهم يستحقون أكثر من ذلك بكثير. فالطالب هو الطالب وكلاهما و فرضا ينتميان إلى مجال "العلم،" ولكن ما الذي يجعل الطالب الغربي يتصرف بطريقة و الطالب عندنا يتصرف بطريقة أخري. تعتبر المسألة ثقافية، فالطالب الغربي ينظر إلى الأستاذ على أنه إنسان مهني يعرف جيدا مجاله و يقيم الطلبة على أسس موضوعية ومن ثم لا داع إلى مساءلة قضايا بديهية، ثم أن المطالبة بشيء لا يستحقه قد لا تتبادر إلى ذهنه بحيث تدرب من طفولته على الاعتماد على النفس ولهم مثل معروف يقول "تحصل على ما كسبت" (you got what you earned) ، و كانه استنباط من الآية الكريمة "وأن ليس للانسان إلا ما سعى،" كما أنه يلاحظ في واقعه الاجتماعي أن الكسب إنما يأتي عن طريق الجهد الفردي المتميز. وإن لاحظ تقصيرا في علامته فإنه يسنبه على الأرجح إلى نفسه. أما الطالب عندنا (في البلد الذي انتقلت إليه)، فربما تدرب على الاتكالية و "الاسترخاء،" و يلاحظ في واقعه الاجتماعي أن تحقيق الغايات كثيرا ما يرتبط بالعلاقات (المعارف) بدل الاعتماد على النفس، و عليه فطلب المساعدة أمر مشروع و مرغوب خاصة و أن الأستاذ لا يقوم بشيء سوى شطب هذه العلامة و تعويضها بأخري في ثوان معدودة! علما بأن هذه الثواني قد تعطل المجتمع بأجيال.

[17] مالك بن نبي، مجالس دمشق، ص. 100

تجاه الجماعة و يجعل الجماعة توفر للفرد الأمن و الطمأنينة، فالمجتمع بدون بنية حضارية أشتات من الأفراد المتنافرة دون مسار محدد، أو كغثاء السيل كما جاء في الحديث " توشك ان تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة الى قصعتها. قيل: اومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل انتم كثير ولكن كغثاء السيل ويوشك الله ان ينزعن المهابة من صدور اعدائكم وان يقذف فى قلوبكم الوهن. قيل: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت." و في تحليله، فإنه فإن ظاهرة "التدين" و العناية بتوثيق الصلة مع الله سبحانه فحسب أمر إيجابي ولكنه يبقى مبتورا إن لم ينعكس ذلك بشكل مباشر في الحراك الاجتماعي أو ما سمبناه "بدفع الوضع إلى الخيال."[18] وبدون الدخول في نظرته النقدية إلى الصوفية و الحركات الإصلاحية في تلك الفترة، فإن قراءته تفضي إلى التوازن بين الشخصي و الاجتماعي، بين المعنوي و المادي، بين الإرادة و الامكان، الخ.

و يميز ابن نبي أيضا بين الإسلام والحضارة التى تتولد وفق ذلك. فالحضارة تمثل عندة ما يمكن اعتباره مستوى ثاني من الممارسة الحضارية، فالمعتقد هو الدافع الأساس لأي حضارة و لكن الحضارة ليست المعتقد. يقول مالك بن بني في هذا الشأن:

الإسلام ليس شيئا بسيطا حتى نكونه نحن بأيدينا كما هي الحضارة صنع البشر. الإسلام صنعه الله محفوظا في اللوح المحفوظ، بينما الحضارة شيء يتكون و ينمو و يعيش و يمتد و يزول "وهدينه النجدين، فلا اقتحم العقبة." بينما الإسلام لا تداوله الأيام، لذا فالإسلام شيء و الحضارة شيء آخر. الإسلام أبدا لا يتغير فيه حرف واحد، و لو تغيرت البشرية كلها. أما الحضارات فتعتريها أمواج التاريخ، تنشأ، تترعرع، تزهو ثم يأتيها الأفول... فلو كان الإسلام هو الحضارة – و الإسلام و الحمد لله ما زال باقيا في قلوبنا و ضمائرنا – لو كان هو الحضارة لما فتحنا مجالا للحديث عن الحضارة، ولما خصصنا للموضوع دراسات أربعين سنة، و لما تكلمنا على هذا الموضوع، لأنه يصبح من فضول الكلام.[19]

---

[18] د. عبد الرحمن عزي، دراسات في نظرية الاتصال، نحو فكر إعلامي متميز،

[19] ن،.م.س. ص 64-65

إن هذا التمييز في نظرنا ذو دلالة عميقة ويدل على رؤية متطورة في علاقة المبررات بالحضارة. و في تعبيرنا، فإن مالك بن نبي يكون قد ميز بين المطلق و النسبي. و نجد أنه و بعد عقود من وفاة ابن نبي مازال هذا الخلط قائما عند أكاديمين و سياسيين و باحثين على وجه العموم بالمنطقة. فإضفاء تعبير "الإسلام" على الظاهرة يعطيها طابع "المطلق" بينما يتعلق الأمر عادة بظاهرة نسبية قد يعاد تشكليها وفق تطور الزمان و المكان. فهب أن مفكرا أو منظمة أو حركة أو ظاهرة أخذت صفة "إسلامي" أو إسلامية" ثم أتي السلوك دون أو مغايرا للتوقعات فهل يحسب ذلك على المطلق أو يعود (أي مردود) على أصحابه و هو الأصح. فالمطلق يقدم المبررات، أما النسبي فاجتهاد على أن ذلك لا يتعين أن ينسينا الترابط الوثيق بين المبررات و الاجتهاد. و مرة أخرى، فإن هذا التحليل، ومن الناحية البنيوية، إنما يحمل جانبين منفصلين و مترابطين في نفس الوقت، فالمطلق ليس النسبي، و النسبي ذو صلة ضرورية بالمطلق، و الاخفاق في التمييز الدقيق بين هذه العمليات من العوامل التي وضعت الأمة على جرف هار وساهمت في تبديد الطاقات و الدخول في معارك جانبية أتت على الأخضر و اليابس دون أن يترحك الموكب خطوة إن لم يكن قد تراجع خطوات.

وإذا أردنا أن نسقط فكر ابن نبي على الإعلام في المنطقة فإننا نجد أن الإعلام عنصرا تابعا في الأزمة الحضارية ودوره يختلف عن الدور االذي يلعبه الإعلام في المجتمعات المصنعة الغربية. فإذا قلنا أن هذا الدور في تلك المجتمعات يتمثل مثلا في الإعلام و التسويق و الترفيه فيكون هذا الأمر مفهوما على اعتبار أن ذلك الإعلام يتحرك في جو حضاري محدد يكون فيه "الانجاز الحضاري" قد تحقق. أما في الرقعة الإسلامية فإن هذا الدور المذكور يكون باهتا في أحسن الأحوال إذ أن مهمة التحول من الإرادة (إن وجدت) و الامكان غير قائمة، ومن ثم فقد وقع الانسياق إلى الوظائف (وهي طبيعية في سياقها) دون المبررات الحضارية. إن الواقعية التي يقوم عليها فكر ابن بني تجعلنا ننظر إلى الإعلام على النحو السائد في الرقعة الإسلامية بوصفه "أداة تبليغية عاطلة،" عدا بعض الاستثناءات المحدودة الذي لا تؤثر كثيرا في النمط الإعلامي السائد، و تكون المهام التي يقوم بها الإعلام "سالبة" بحكم ابتعادها في تحليلنا عن القيمة. وإذا وظفنا لغة ابن

نبي فإننا نجد أن الإعلام يعكس الأزمة الحضارية في شكل أدوار غير وظيفية (باستخدام تعبير النظرية الوظيفية) وتتمثل هذه في العناصر التالية:

التعطيل الحضاري:

يعود التعطيل في فكر ابن نبي إلى انفصال العروة الوثقى بين مبررات الحضارة و الفعل الاجتماعي. ورغم أن شروط النهضة قد تكون حاضرة بوصفها عناصر كامنة، إلا أنها، و بدون الطاقة المعنوية المحركة، تتوقف عند مستوى الإرادة و لا تنخرط في الدورة التاريخية الحضارية. إننا لو نظرنا إلى الخريطة الإعلامية بالمنطقة، و باستثناءات ضيقة، فإننا نجدها تتحرك بدون مبررات حضارية، و ذلك ما يجعلها تعجز على بناء و "تجميع" الطاقات و توجيهها في خدمة قضايا الأمة. فالإعلام "مبتور" من تلك المبررات و إلى حد كبير منشطر إلى وسائل تخضع لاعتبارات محلية سلطوية أو تجارية (على مستوى البلد الواحد) و ذلك وفق انشطار وعي الأمة إلى مجموعات "ديمغرافية" (جغرافية أو قومية أو طائفية، أو قبلية، الخ.) لا ترقى إلى مستوى الحضارة. فالإعلام هنا يعمل بوعي أو بغيره على تثبيت "الركود" الحضاري وإن كان هذا الأخير(أي الركود) من صنع المجتمع وحالته التاريخية فانعكس ذلك في أحد بنياته "الدخيلة،"[20] أي وسائل الإعلام و الاتصال. و قد سعيت في الدراسة المذكورة[21] أن أضع الإعلام إلى جانب الزمن في معادلة ابن نبي "الإنسان و التراب و الزمن" باعتبار الإعلام عنصر ينتمي إلى حضارة زمانية[22]، فالإعلام نظريا، قد يسرع عملية التغيير الاجتماعي أو يبطئها بقدر اعتمادة على الربط بين المبررات و المضامين و المتغير الاجتماعي، بالسرعة و الانتشار.

تحييد الإنسان و التراب و الزمن:

إن معادلة ابن بني "الإنسان- التراب – الزمن" تمثل عناصر ضرورية ولكنها غير كافية في بناء الحضارة، إذ تحتاج هذه الأخيرة إلى الطاقة المحركة المنبثقة من المعتقد.

[20] على اعتبار أن الإعلام دخل المنطقة مع الاستعمار، فهو ظاهرة غربية كما يقول د. زهير إحدادن.

[21] Abderrahmane Azzi, Developmental Communication….

[22] ومن ذلك انتشار الأفكار دون أصحابها على عكس الحضارة المكانية التي تتطلب انتقال المتلقي إلى المصدر.

وإذا ما غابت هذه الطاقة خرج الإنسان من المعادلة التاريخية و تحول التراب إلى أرض بور و ضاع الزمن بدون إنجاز يذكر. إن قراءة إستراتيجية في هذه المعادلة تبين أن الحضارة تحتاج إلى موارد بشرية معتبرة (السكان) والتراب (المجال الجغرافي والموارد الطبيعية) و الزمن ممثلا في الاستقرار النسبي الممتد على النحو الذي اتبعته أمريكا في بداية نهضتها حيث ابتعدت عن متاعب العالم القديم (أوروبا) و رفعت شعار "أمريكا للأمريكيين." و لو نظرنا إلى الرقعة الإسلامية اليوم، نجدها تحتوى على عناصر المعادلة ولكن هذه العناصر "معطلة" بفعل انفصالها عن المبررات الحضارية. وحسبي فلو أن ابن نبي عاش فترة انتشار الإعلام و تكنولوجيا الاتصال بعد السبعينيات لأضاف عنصر الإعلام إلى المعادلة المذكورة. و لو أو أدخلنا في الحسبان القوى "الدولية" القائمة حاليا مع بروز ما يسمى بالقطب الواحد ونِشأت قوى منافسة من المستوى الثاني و الثالث فإن يمكن إضافة عناصر إضافية إلى تلك المعادلة مثل المعرفة و القوة العسكرية، أي إنسان، تراب، زمن، إعلام، معرفة، قوة عسكرية. و يبقي المحرك الاجتماعي التاريخي ذاته، أي مدى ارتباط هذه العناصر بالمبررات. فاليابان و ألمانيا، المثالان اللذان يستخدمهما ابن نبي كثيرا، تمتلك، و بالإضافة إلى المبررات الحضارية، الإنسان و التراب و الزمن و المعرفة ولكن ينقصها الإعلام و القوى العسكرية التي يمكن أن تحولها إلى قوى عظمى. والأمر أبعد عن ذلك بكثير في الرقعة الإسلامية إذ كما أسلفنا تمتلك عناصر "معطلة،" أي الإنسان و التراب و الزمن و يغيب عنها بفعل ذلك الإعلام و المعرفة و القوة العسكرية. إننا لو أردنا دراسة تأثير وسائل الإعلام بالمنطقة على الإنسان و التراب و الزمن فإننا نجد أن هذه الوسائل، وعلى وجه العموم، تكرس عملية التعطيل الحضاري و تعمل إن بوعي أو غيره إلى تحييد هذه العناصر بما يجعلها غير فاعلة في المعادلة الاجتماعية التاريخية.

الإخفاق "الموازي"[23] في تبليغ الآخر: إن الإعلام في المنطقة لم يستطع أن يحمل مبررات حضاريته إلى الاخر (و لا يستطيع أن يفعل ذلك في المرحلة الحالية)، ذلك أن الإعلام انعكاس للركود الحضاري ولا يستيطع أن يحمل رسالة غير مجسدة في الواقع

[23] القصد من ذلك أن الاخفاق حضاري اجتماعي فانعكس في وسائل الإعلام

المعايش. وفي فكر ابن نبي، فإن تبليغ الآخر يحدث عند الارتقاء إلى المستوى الحضاري الذي يتعين أن يكون "أرقي" من مبررات حضارة الآخر. يقول ابن نبي "إن على المسلم أن يبلغ الإسلام" ولكن في التبليغ شروط[24]، و يسرد لما المثال التالي:

هل ترون إلى أرض عطشى تنتظر الري من الماء؟ هل نستطيع ريها بماء يجري تحت مستواها؟ إن الإجابة ستكون بالطبع: لا – باستثناء المجنون أو صاحب الشطحات الصوفية إذ يعتقد ان الماء سوف يطلع إليها فيسقيها -. لا لن يسقي الماء الأرض بالصعود إليها، وإنما بالانحدار و ذلك بحكم السنن الإلهية عن طريق الجاذبية. سنة الله تقضي أن ينحدر إلى هذه الأرض إذا كان مستواه يخوله ذلك.[25]

يترتب عن ذلك أن الإعلام في المنطقة لا يقدر على الانتقال إلى مرحلة "الاشعاع في الخارج" دون "تشييد" حضاري في الداخل، فالاخفاق الإعلامي في المنطقة من نوعين: داخلي و خارجي.

و يرى ابن نبي أن الحضارة الغربية بدأت تفقد مبرراتها، أي بلغته أتلفت "بعد السماء" وأوجدت "فراغ النفوس" وهو ما يوفر أرضية جديدة في النظر إلى مبررات العقيدة الإسلامية بوصفها مخرج للانسانية جمعاء إذ "ترفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود، إلى ربانية الوجود، و لاقداسة لهذا الوجود إلا بوجود الله."[26]

القابلية "الإعلامية"[27] للتبعية:

يقوم مفهوم ابن نبي "القابلية للاستعمار" على مبدأ أن الاستعمار ذو شقين، يتعلق الأول بالمستعمر (بكسر الميم) و ذلك واقع يفرض المواجهة، و الثاني بالمستعمر (بفتح الميم) الذي يكون ضعفه وهوانه أساس الاستعمار، و ذلك ما يتطلب تغيير الذات و المجتمع تزامنا مع مواجهة الآخر. و يرى ابن نبي أن إلقاء اللوم على الاستعمار في تفسير حال الركود في الجزائر[28] و الرقعة الإسلامية يحجب حقيقة كبرى و تتعلق بعدم

---

[24] مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، سورية، 2002 ، ص. 37.

[25] ن.م.س. ص. 38

[26] ن.م.س. ص. 39.

[27] من إضافتنا لمفهومه القابيلة للاستعمار

[28] كمثال لأطول فترة استعمارية عاشها بلد مسلم في التاريخ المعاصر

الالتفات إلى الذات التي تمثل مكمن الداء و الدواء.[29] و بمعنى آخر، "فالواجب يستلزم نزع الاستعمار من النفوس و الأفكار، قبل نزعه من النصوص."[30] "إن الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم." و إعلاميا، فإن استيراد البضاعة الإعلامية الغربية في شكل أفلام و مسلسلات و برامج تفاهية و أخرى اجتماعية و نفسية[31] و قبولها و دبلجتها و بناء جمهور يتعلق بهذه المضامين إنما يتعلق بتعبيرنا "بالقابلية الإعلامية للتبعية." وبمعنى آخر، فلولا الاستعداد و الاندفاع نحو هذه المحتويات من المتلقي (مؤسسات إعلامية و جمهور) لما انتقلت و انتشرت هذه الأخيرة و أضحت تسجل اختراقات ثقافية "حاسمة" في صمت "أشبه بالمميت."[32] وإذا نظرنا إلى الرصيد الذي جلبه هذا التعرض "المسلوب" على الرقعة الإسلامية اليوم، فإننا نتساءل عماذا جناه المسلمون سوى ربما الانحرافات الأخلاقية و الأمراض الاجتماعية و التقليد الشكلي للآخر و النزعات الاستهلاكية التي خلفتها الحضارة الغربية على جوانبها المتعددة. وكنت قد عبرت في سياق مماثل ردا على مسألة إقبال "الشباب" في المنطقة على البرامج التلفزيونية المسماة "الواقعية!" مثلا بأن ذلك يرتبط بالأساس بغياب الوعي لدى المؤسسة الإعلامية وبالفراغ الروحي إضافة إلى الاستيلات الاجتماعي التي تتسم به تلك الفئة "الشابة" التي يجمعها مفهوم القابلية الإعلامية للتبعية. و في سياق مماثل، نجد أن منادات دول العالم الثالث، التي يشكل منه محور طانجة – جاكارتا الجزء الأساس، بما يسمى "بنظام إعلامي دولي جديد،" خاصة في سبعينيات القرن الماضي، فإننا نجد أن هذا الطرح تجاهل الشق الآخر من الاستعمار، أي القابلية الإعلامية للتبعية. إن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا تقوم دول العالم الثالث من خلال وسائل إعلامها بالاشتراك في وكالات الأنباء و المحطات المنتجة للمواد المسموعة المرئية في الغرب وتستورد موادها الإعلامية

---

[29] مع الإشارة إلى الجدل و سوء الفهم الذي رافق ظهور هذه الفكرة و من ذلك استخدامها من الاستعمار ذاته كما يشير إلى ذلك ابن نبي في كتابه الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.

[30] د. أسعد السحمراني، مالك نبي: مفكرا إصلاحيا، دار النفائس، بيروت، 1984، ص. 167.

[31] البرامج الحديثة المدبلجة مثل Opra and Dr. Phil

[32] و ليس القصد من ذلك بعض البرامج الفكرية و التحاليل الإخبارية و الأفلام الوثائقية و المعرفة العلمية التي يحتاج إليها أهل العلم و الاختصاص

وتدفع تكاليف هذه الخدمات ثم "تشتكي" من أن هذه الوكالات و المحطات تحتكر وتجعل التدفق الإعلامي ذو اجاه واحد. إن عدم الوعي بالقابلية الإعلامية للتبعية أفقد هذه الدول إمكانية توجيه تفكيرها و جهدها نحو تغيير أنظمتها الإعلامية و تأسيس أنظمة إعلامية مستقلة و جديرة و تطور الصناعية الإعلامية الخاصة الكفيلة بأن تستغني عن الإعلام الغربي و تحقق ما كانت تدعو إليه، أي النظام الإعلامي الدولي الجديد، " الأمر الذي لم يتحقق بفعل غياب العناصر المذكورة.

إبعاد الجو الثقافي:

يعتبر ابن نبي أن الحضارة إنما يحركها الجو الثقافي، فإن تغير الجو، تغيرت دينامية الحضارة و آلت إلى ما آل إليه الجو السائد. و يعيد ابن نبي أفول الحضارة الإسلامية جزئيا إلى التغير من الجو الثقافي إلى الجو العسكري في مواجهة الأخطار الخارجية المحدقة في فترة الخلافة العثمانية بالخصوص. وفي هذه اللحظة هاجر الاشعاع الحضاري إلى الضفة الأخرى من التجربة الانسانية (أي الغرب). وليس المقصود بالثقافة التراث أو فلكلور الغناء و الطرب، أو التعليم الذي ينقل معارف قد تكون محايدة مفصولة عن المبررات الحضارية. إنما الثقافة ما ينقل هذه المبررات و يحرك المجتمع في اتجاه تحقيقها في الواقع المعايش. و بتعبيرنا، فإن الثقافة ممارسة واعية تشمل الترابط بين القيمة و العقل و السلوك.[33] وإذا نظرنا إلى وسائل الإعلام في الرقعة الإسلامية اليوم فإننا نتساءل ما إذا كان محتوياتها تنقل المبررات الحضارية و توجه طاقة المجتمع نحو ذلك؟ إن ما تؤسسه هذه الوسائل جو آخر يمكن تسميته بالجو "الدعائي الاستهلاكي التفاهي"[34] أما الدعائي فيمثله الخطاب السياسي (و البروتوكولي من نوع استقبل و غادر و صافح، و اتصل)، و الاستهلاكي فيتوجه إلى اقتناء المنتجات الغربية و تبني نوع من نمط حياة يحاكي التجربة الغربية في الشكل، أما التفاهي فتمثله قنوات الغناء و الطرب و المسلسلات الأفلام التجارية، الخ. ومن الأهمية بمكان أن نجد في الدراسات الحديثة في الغرب من يرى أن من عوامل تراجع الحضارة الأميركية تحولها

[33] انظرنا تعريفنا للثقافة في "دراسات في نظرية الاتصال..."

[34] تعبيرنا الخاص

التدريجي من الجو المعرفي العلمي إلى العسكري الذي جعلها تتخذ شكل امبراطورية القوة التي تحمل بذور الاضمحلال.

تغييب "التوجيه في الثقافة و العمل و المال:"

يعرف ابن نبي التوجيه أنه "قوة في الأساس و توافق في السير ووحدة الهدف... و كم من طاقة وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها، حين زحمتها قوى أخرى صادرة عن المصدر نفسه متجهة إلى الهدف نفسه."[35] و يشير ابن نبي في ذلك إلى أهمية "الفعالية" التي يعتبرها في موقع آخر من مؤشرات النهضة الحضارية. و يشمل التوجيه الثقافة بوصفها "المحيط الذي يعكس حضارة معينة."[36] وفي حال الركود، فإن توجيه الثقافة يعني إزاحة عناصر الانحطاط، "فلا سبيل لعودة الثقافة إلى وظيفتها الحضارية إلا بعد تنظيف الموضوع من الحشو أو الانحراف، الذي أحدثه فيه عدم فهمنا لمفهوم (ثقافة)."[37] و يسرد ابن نبي نماذج متعددة عن عناصر الانحطاط و تشمل أي مظهر لا يرقي بأفراد المجتمع أو يدفعهم إلى "السقوط من فوق الجسر إلى الهاوية،" ومن ذلك "التشخيص و الغلو، الشكلية، التقليد الأعمى، المغالطة، المادية اللاشعورية، تضخم الذات و ظهور مرض التعالم، الخيال و سيطرة الأوهام، المكابرة و عدم الاعتراف بالخطأ، و الشهوانية."[38] و يحدد ابن نبي أربع عناصر في الثقافة: الأخلاق و الجمال و المنطق العملي و الفن التطبيقي.[39] و ينبه ابن نبي بشكل أساس إلى عنصر غياب الفعالية (أي المنطق العملي) في سلوك المسلم، "ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل و الحركة، فهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاما مجردا بل أكثر من ذلك." و يضيف "و لقد يقال إن المجتمع الإسلامي يعيش طبقا لمبادئ القرآن، و مع ذلك فمن الأصوب أن نقول: إنه يتكلم تبعا لمبادئ القرآن لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي."[40] و

---

[35] مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، 1992، ص. 84

[36] ن، م، س، ص. 89

[37] ن، م، س، ص. 90

[38] نورة خالد السعد، التغيير الاجتماعي في فكر ابن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، الدار السعودية للنشر و التوزيع، الرياض، 1996، ص. 183.

[39] ن،م،س، ابتداء من ص 88

[40] ن، م، س، ص. 103

يستتبع توجيه الثقافة توجيه العمل، أي "تأليف كل هذه الجهود لتغيير وضع الإنسان، و خلق بيئته الجديدة،" والعمل في ذلك أشمل من الناحية الكسبية إذ يشمل مختلف أبواب الخير بدءا بإزالة الأذى عن الطريق. و يتضمن توجيه المال كيفية الاستخدام بوصفة آلة اجتماعية تتحرك و تختزن في اتجاه تحريك العجلة الاجتماعية والاقتصادية.

إننا إذا نظرنا إلى مكانة وسائل الإعلام بالمنطقة في هذا التوجيه فإننا نجده شبه غائب في قاموس الأداء الإعلامي، فإبعاد الجو الثقافي يقصي بالضرورة مسألة التوجيه الثقافي، إلا في مسائل جزئية لا تؤثر كثيرا في المسار العام الذي اتخذته وسائل الإعلام بتوريط المتلقي في الجو الدعائي و التفاهي و الاستهلاكي. وقد تآكلت، منذ وفاة ابن نبي، الكثير من قيم الثقافة والعمل و المال و تراجع سلوك المسلم بشكل كبير مما جعل وتيرة الانحدار الحضاري تتسارع بقدر ما تبتعد وسائل الإعلام عن معالجة القضايا المصيرية الخاصة بقيمة الثقافة و العمل و النشاط الاقتصادي الهادف وبقدر ما يفقد المتلقي الوعي بأهمية إسهامه الشخصي في إطار التقسيم الاجتماعي للعمل كما يقول علماء الاجتماع.

تغليب الأشياء و الأشخاص على الأفكار:

يرى ابن نبي إن بناء الحضارة يتأثر بثلاث أنواع من "الطوائف الاجتماعية:" علم الأفكار، عالم الأشخاص، و عالم الأشياء. إن قيمة المجتمع بحجم الأفكار التي تحركه وليس الأشخاص و الأشياء التي تتعرض إلى "التلف" أو التدمير مثلما حدث في الحالة الألمانية التي (أي ألمانيا) استيقظت إثر ذلك بحكم امتلاكها للأفكار. وفي المجتمع "المتحضر" تكون العلاقة بين هذه العناصر الثلاث متوافقة. فالأفكار توجه الأشخاص إلى الحركة، و الأشخاص "يحسنون استيعاب الأفكار وفهم واقعهم فيستطيعون تحديد الأهداف بما يتناسب مع الظروف ومع القدرات البشرية و المادية المتوفرة."[41] إن التلاقي بين الأفكار و الأشخاص على أرض الواقع يؤدي بهذا الأخير (أي الواقع الاجتماعي) إلى إنتاج أدواته (أي الأشياء). أما في الحالة الحضارية الراكدة، فإن السائد اختلال التوازن بين العناصر المذكورة، فالأفكار إن وجدت تبقى معطلة، و ما يظهر من أفكار تتم

[41] د. أسعد السحمراني، ص. 145.

شخصنته (أي ربطه بالأشخاص)، فيفقد مع الزمن مضمونه المجرد و يكون ذلك وسيلة إلى "قتل" الفكرة المجسدة،[42] مما يجعل المجتمع عاجز على إنتاج متطلباته المادية (أي الأشياء) فيرتبط إذا بتبعية مستمرة للأشياء المستوردة من جضارة أخرى. و يرى سليمان الخطيب أن ابن نبي يربط بين الوثنية الدينية و بين غياب الفكر و يذكر:

لقد أطلق القرآن اسم الجاهلية على الوثنية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، رغم أن الجاهلية لم تكن تفتقر إلى تراث أدبي، إذ ترجع إلى هذه الفترة أكبر الألقاب الأدبية التي خلعت على الإنتاج الأدبي العربي، ومع ذلك فقد ظلت جاهلية، لأن علاقاتها المقدسة لم تكن مع أفكار و إنما كانت مع أوثان الكعبة، فلم تكن تحتوي لغة العرب إلا على كلمات براقة، و لكنها خالية من أي جوهر خلاق.[43]

إن قيمة أي مجتمع بأفكاره و ليست بأشيائه. ويكمن الاختلال الآخر في هذا التوازن تقليد الآخر في اقتناء الأشياء، فتصبح القيمة في الشيء وليس في الفكرة، فتنشأ في هذه الحالة حضارة "شيئية." وفي جو الأشياء تفقد الفكرة قيمتها الاجتماعية و تتحول ربما إلى ما يسمى "بالترف الفكري." و في نظر ابن نبي، فإن حالة المسلم في مرحلة ما بعد الموحدين لم تخرج كثيرا عن ثنائية "الشيء و الشخص" بعيدا عن عالم الفكرة.[44] وعندما تتحول الأشياء إلى المرتبة الأعلى في سلم القيم، تنقلب إذا معادلة الثقافة[45] وتبرز ثقافة تكديس الأشياء و مراكمتها بوصفها تعبير شكلي مرضي عن الحداثة. أما تجسيد القيم في الشخص فإن ذلك مدخل إلى زوال القيمة في محدودية الشخص في الزمان و المكان و إمكانية نسب أخطائه و ربما انحرافاته إلى القيمة و المجتمع.

إن قراءة تحليلية في مضامين وسائل الإعلام وتكنولوجيا الاتصال بالمنطقة تشير إلى "شح فكري واسع" أو ما سميته "بالعجز القيمي." إن المضامين ذلت البعد

---

[42] يشرح ابن نبي العلاقة بين الفكرة المجسدة و الفكرة المجردة في حال البلاد المستعمرة إذ يرى أن الاستعمار يهدف دائما إلى تحويل المجرد إلى مجسد لاستهدافه و القضاء عليه، فما يزعجه كثيرا المجرد و ليس المجسد، انظر في ذلك:
مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، 1988، ص. 14-16.

[43] د. سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، 1993، ص. 166.

[44] د. سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة، ص. 167.

[45] على النحو الذي عرفناه، انظر عبد الرحمن عزي، نحو فكر إعلامي متميز

الخبري و السياسي تدور في فلك الأشخاص، أما المادة التجارية الإعلانية فتستهدف الأشياء. وما أدل على هذه النزعة الأخيرة سلوك المتلقي الذي يسعى إلى اقتناء الأشياء بوصفها بوابة الدخول إلى الحداثة بدون إدراك أن هذه الأشياء من نتاج جو ثقافي آخر و من حضارة ليست من مجاله الطبيعي و الثقافي مما يجعل صلته بهذه الأشياء شكلية وليست حقيقية.

تفكيك النسيج الاتصالي الاجتماعي:

يترتب عن الفترة السابقة أنه مثلما يقول ابن نبي "لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من (أشياء) بل بمقدار ما فيه من أفكار،"[46] ولكن هذه الأفكار تبقى غير فعالة بدون شبكة من العلاقات الاجتماعية التي تجسد هذه الأفكار. يقول ابن نبي " فإذا ما تطور مجتمع ما على أية صورة، فإن هذا التطور مسجل كما و كيفا في شبكة علاقاته.. و عندما يرتخي التوتر في خيوط الشبكة، فذلك أمارة على أن المجتمع مريض، و أنه ماض إلى نهايته."[47] ففعالية الأفكار تتوقف على شبكة العلاقات الاجتماعية التي تولد عاملا متجانسا من الأفكار و الأشخاص و الأشياء. و لا يعتبر ابن نبي التطور المادي دليل على غنى العلاقات الاجتماعية إذا لم تكن هذه الأخيرة ممارسة تجسد مبررات الحضارة. و يقول في ذلك: فلقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسورا ناميا، بينما شبكة علاقاته مريضة، و يتجلى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد. وأكبر دليل على وجوده يتمثل فيما يصيب (الأنا) عند الفرد من (تضخم) ينتهي إلى تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية، عندما يختفي (الشخص) أو خاصة عندما يسترد (الفرد) استقلاله وسلطته في داخل الجسد الاجتماعي.[48]

إن الاختلال في العلاقات الاجتماعية يؤثر بدوره على عالم الأفكار والأشياء "فالعلاقة الفاسدة في (عالم الأشخاص) لها نتائجها السريعة في (عالم الأفكار) و في (عالم الأشياء)، و السقوط الاجتماعي الذي يصيب (عالم الأشخاص) يمتد لا محالة إلى

[46] مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، دار الفكر، دمشق، 1989، ص. 37.

[47] ن، م، س، ص. 42

[48] ن، م، س، ص. 43

الأفكار و إلى الأشياء."[49] و يشر ابن نبي إلى أن المجتمع الإسلامي بعد سقوط الموحدين (أو، كما يسميه، إنسان ما بعد الحضارة " فقد روح العلاقات لاجتماعية "ولم يعد المجتمع الإسلامي بعدها مجتمعا بل تجمعات لا قوة لها و لا هدف بفقدان هذه الشبكة من العلاقات الاجتماعية و المبررات التي رفعت من شأن المسلمين في العهد الأول من الرسالة." [50]

و يعتبر انبي أن المدخل إلى التغيير يبدأ بتعديل المعادلة الاجتماعية، وفي هذا السياق، يميز ابن نبي بين الأخوة و المؤاخاة. فالأخوة أمر مجرد و أدب عام يعبر ربما على "الفعل الروتيني شبه اللاشعوري الذي يعبر عن العادة لا عن الإرادة."[51] و في نظر ابن نبي:

وما كان لثورة إسلامية أن تكون ذات أثر خلاق إلا إذا قامت على أساس "المؤاخاة" بين المسلمين لا على أساس "الأخوة" الإسلامية." و فرق ما بين "المؤاخاة" و بين "الأخوة" فإن الأولي تقوم على فعل ديناميكي بينما الثانية هي عنوان مجرد، أو شعور تحجر في نطاق الأدبيات.[52]

إن وسائل الإعلام بالمنطقة تسحب الكثير من الزمن الاجتماعي إلى الإعلامي، وعندما يحدث ذلك يتم إبعاد المعادلة الاجتماعية بذاتها إضافة إلى إبعاد المبررات الحضارية في تلك المضامين، فتتقطع أواصر الصلة الاجتماعية ويعفي الفرد نفسه من تلك المسؤوليات الاجتماعية مثل الدخول في دينامية اجتماعية دالة من أجل التغيير إلى الأرقى. و قد عملت هذه الوسائل، بوعي أو غيره، على إقصاء دينامية الحراك الاجتماعي وتعويضها بارتباط رمزي بقضايا حتى وإن بدت قريبة فهي بعيدة المنال.

"خصخصة" التجربة الإيمانية:

يقصد "بالخصصة" تحويل التجربة الإيمانية إلى معادلة شخصية تخص بالأساس علاقة الفرد مع الله. و هذا الأمر بذاته إيجابي ولكنه محدود في دلالته إن لم

---

[49] ن، م، س، ص. 45

[50] نورة خالد السعد، التغيير الاجتماعي في فكر ابن نبي ، ص. 134.

[51] محمد شاويش، مالك بن نبي و الوضع الراهن، دار الفكر، دمشق، 2007، ص. 57.

[52] ن، م، س، ص. 57

يكن مصحوبا بتفاعل اجتماعي يجسد تلك المعاني الإيمانية في الواقع الاجتماعي، فالدين معاملة، و الوعي الحضاري ممارسة اجتماعية بالدرجة الأولي عند ابن نبي. و لا يحتاج الأمر إلى الدخول في الجدل التي صاحب العلاقة بين الكنسية و العلم في الغرب وأدي ذلك إلى الفصل النسبي بين الدين و الحياة، و إنما إدراك العلاقة العلية بين الايمان والعمل مثلما تدل عليه الآيات المتعددة "الذين آمنوا و عملوا الصالحات." وإذا نظرنا إلى عدد من الحصص "الدينية" في عدد من وسائل الإعلام بالمنطقة، فإننا نلاحظ غياب البعد الاجتماعي فيما يمكن تسميته مجازا بالخطاب "الديني،" أي أنه يخاطب الفرد بعيدا أو بغض النظر عن سياقه الاجتماعي، و عندما تطرح الأمثلة فإنها تعود إلى فترة محددة من تاريخ الإسلام، أي فترة الصحابة وضوان الله عليهم، دون أن يكون هناك جهد معتبر في ربط ذلك بالواقع "المتردي" الذي يعيشه المسلم اليوم في شتى المجالات. إن هذا الابتعاد عن المعادلة الاجتماعية، و إن كانت له أسباب متعددة، فإنه يفسر لنا أيضا ذلك الركود الحضاري الذي لا يضفى الطاقة اللازمة على الإنسان و التراب والزمان. و قد اتجه مثل هذا الخطاب إلى القضايا "الفقهية" الخاصة بالأحوال الشخصية[53] بشكل ربما طغي على الواجبات الحضارية الحاسمة. فالقضايا المطروحة على الأمة في حال الركود ليست فقهية رغم أهمية ذلك بقدر ما هي اجتماعية حضارية مصيرية.

[53] و لا يأس، و على طريقة ابن نبي، أن أذكر مثالين يوضحان مثل هذه الحال. فقد استمعت مرة إلى برنامج، بمحطة إذاعية ببلد عربي، يخص الفتاوى حيث اتصلت سيدة ، وكان مؤشرات غزو العراق تتداعي بسرعة آنذاك، فسألت المفتي و قالت أن زوجها لا يحب الملح و هي أحيانا تتحايل فتضع الملح في الأكل لأعطائه الذوق المطلوب. و كنت أتوقع من المفتي أن يقول بأن هذا ليس بسؤال يطرح وأنها تعرف الإجابة لو استعملت القليل من التفكير فإذا به يقول بأن هذا الأمر لا يجوز ودخل في تفاصيل تبرير ذلك. أما المثال الثاني فحدث مع الهجوم على غزة، فقد كنت في مصلي في بلد عربي آخر و أثناء الصلاة و بعد الركعة الثالثة قام الإمام و أدى دوره إذ دعى دعاء مثيرا لأهل غزة ندعو الله الاستجابة، ثم و بعد الانتهاء من الصلاة قام أستاذ من كلية الشريعة فحسبت أنه سيواصل الحديث عن أحداث غزة مثلا فإذا به يبدي علينا ملاحظتين: أولهما أن الصف الأول من المصلين ليس متراصا تماما، و عليه يتعين تصحيح ذلك، و ثانيهما أن طريقة الجلوس بعد السجود عند بعض المصلين ليست صحيحة إذ يتعين الجلوس على سبع (ولعله يقصد سبع أصابع)، وعندما نظرت إلى المستمعين علهم يستغربون ذلك، فوجدتهم يثنون عليه و يشكرونه على هذه الملاحظات القيمة. إن المسافة بين الملح و الصف المتراص و الجلوس الصحيح وبين قضايا الأمة التي يعتبرها ابن نبي "في حالى طوارىء" شاسعة، و هب أننا تقاعسنا في مساندة إخواننا بغزة فماذا ينفعنا الصف المتراص و الجلسة الصحيحة

وفي نفس السياق، فإن ابن نبي يميز بين الصحة و الصلاحية في التعامل مع "الظاهرة الدينية." فالصحة تتطلب البرهان العلمي على أن الأمر يمثل حقيقة، والصلاحية تشير إلى حضور المبررات الحضارية في المعادلة الاجتماعية التاريخية، وكأن ابن نبي يشير إلى أن النقد الموجه إلى المجتمع الإسلامي يخلط بين العمليتين، إذ أن غياب الصلاحية في الوقت الراهن أمر نسبي مؤقت وليس دليل على مدي صحة المبررات الحضارية. وإذ أن الصلاحية مفقودة في المجتمع "الراكد" اليوم فإن الجهد يتعين أن ينصب إلى تحقيق الصلاحية وليس إثبات صحة المبررات الحضارية. وبمعني آخر، لا ينبغي "وضع المشكلة الكلامية في موضع المشكلة الحضارية."[54] يقول ابن نبي:

ليست القضية أن نفرض على الأقدار أن تتصرف طبقا لشهواتنا و لرغباتنا، وليست بأمانينا و لا بأماني أهل الكتاب أيضا، بل هي قدرة إلهية تتصرف بحكمة وقسط بين البشر، فالأرض يرثها العباد الصالحون الذين يصلحون الأرض، فهذا هو جانب الصلاحية. [55] و يفسر هذا التمييز تطور الغرب و انحطاط المسلمين، فالله سبحانه يورث الأرض للصاحين حتى ولو كانوا غير مؤمنين: "و لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون." ويرد ابني ذلك إلى حكمة الله "لأن الله لا يضيع الكون بسبب نية المسلمين، و بسبب ضياع المسلمين (ليس بأمانيكم و لا أماني أهل الكتاب)...فالله أعلى من إرادة المسلمين و أعلى من إرادة الآخرين من غير المسلمين."[56]

إستبعاد عولمة الرسالة "القيمية:"[57]

إن فكر ابن نبي ذو طبيعة عالمية. فلو عدلنا تعبير "ماكلوهان" عن القرية العالمية (global village)، لوجدنا أن دعوة ابن نبي دعوة إلى قرية عالمية ولكن ليس على أساس "الوسيلة هي الرسالة" و لكن على أساس "قداسة الوجود" و القائمة على سنن إلهية كونية تخص البشرية جمعاء بمحوريها طانجا-جاكارتا و واشنطن- موسكو. ويختلف هذا المفهوم عن ما يسمى بالعولمة حاليا و القائمة بشكل أو آخر على مركزية

[54] محمد شاويش، مالك بن نبي، ص. 59.

[55] مالك بن نبي، مجالس دمشق، ص. 150.

[56] ن، م، س، ص. 154-155

[57] تعبيرنا الخاص

الحضارة الغربية، فالعالمية التي يدعو لها بن نبي "عالمية حضارية" تنقذ الغرب من سلطان الاستعمار و تجعله يكتشف الآخر بعيدا عن المناورات و الهيمنة.[58] و بتعبير آخر، فإن دعوته تخص "القرية العالمية القيمية" إن صح هذا التعبير. و الحاصل أن نهجه في هذا الجانب أكثر تطورا من الناحية الفكرية و السياسية[59] من إسهامات الحركة "السلفية" والإصلاحية إذا أنه يعتبر أن سبيل النجاة مشترك بين مجموعة بقيت على مستوى "الإرادة" (العالم الإسلامي) و أخرى اندفعت دون قيد نحو "الإمكان" ففقدت المبررات الحضارية (العالم الغربي)، و كأن ابن نبي يعطي مثال "السفينة،" الذي ورد في حديث الرسول (صلعم)، بعدا عالميا يتجاوز الرقعة الإسلامية. فالإسلام في نظره لا يعني المسلمين وحدهم.[60]

إننا لو نظرنا إلى ما يمكن اعتباره "الخطاب الديني الإعلامي" في عدد من الفضائيات اليوم فإننا نجدها "يذكر المسلم بإسلامه،"[61] وذلك أمر ليس جوهري بالمقارنه مع حال الأمة (الركود الحضاري) من جهة و ما تفرضه عالمية الرسالة من التفاعل مع الآخر. وقد وجدت تمييزا دقيقا في ثنايا نص ابن نبي عن "دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين" بين التبليغ بالدين و التبليغ بالرسالة. يقول ابن نبي في حديثه عن الاقتناع:

وأنا أعني قناعته برسالته (يشير إلى المسلم) في الثلث الأخير من القرن العشرين و لا أتكلم عن اقتناعه بدينه. فكل مسلم مقتنع بدينه من يوم أن نزلت الآية الأولى في غار حراء. ومن يحاول أن يأتي للمسلمين بوسائل لاقتناعهم بدينهم فانما يضيع وقته و ربما يضيع وقت المسلمين أنفسهم.[62]

---

[58] عمر بن عيسى، مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي و في مستقبل المجتمع الإسلامي، دار الفكر ، دمشق، 2007، ص. 35.

[59] أسلوبه في هذا الجانب غير مباشر لحكمة في ذلك

[60] انظر كلمة الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة بمناسبة الملتقي الدولي حول المفكر مالك بن نبي سينة 2003 في: عمر مسقاوي، مقاربات حول فكر مالك بن نبي من على منبر الجزائر، دار الفكر، دمشق، 2008، ص. 69-77

[61] وإن كانت الذكر تنفع في كل الأحوال ولكن في الأمر أولويات

[62] مالك بن نبي، دور المسلم، ص. 50-51

ثم يقيد ذلك بإقناع الآخر (الغرب) الذي لا يحكم بالأقوال و لكن أكثر بالشواهد أي بمنطق القديس توما.[63] فيضيف:

فما هو واضح في تصوري أنا المسلم ليس واضحا بالنسبة للآخرين الذين ينبغي عليأن أتقدم إليهم آخذا بالاعتبار تصورهم هم لا تصوري أنا عن حقيقة المسلم. لأن حقيقة المسلم محجوبة عن نظر الآخرين. إن حقيقة المسلم، كرامة المسلم، فضيلة المسلم، أخلاق المسلم، شرف المسلم، عزة المسلم، كل هذه الأشياء تخفيها عن نظر الآخرين المظاهر الاجتماعية. وهي تشهد بكل أسف في نظر الآخرين على المسلم و ضده. فالمسلم فقير، و المسلم جاهل، المسلم كذا...[64]

وإذا، فالعلاقة بين فكر ابن نبي و الظاهرة الإعلامية عميقة وإن لم يضع الإعلام محورا رئيسا في دراسة أزمة الثقافة في الرقعة الإسلامية. و قد لاحظت في محاور الجلسات التي انعقدت بمناسبة الملتقى الدولي حول "فكر مالك بن نبي" الأخير[65] أنها لم تتضمن مجال الإعلام، و كان الفاضل د. الرشيد ميموني قد حدثني في الموضوع قبل ذلك ثم انقطعت الصلة بيننا إلى ما بعد المؤتمر. و لابن نبي باع طويل في مجال الممارسة الصحفية ولعله مثل العديد من رجال الفكر في تلك الفترة[66] ينظرون إلى الإعلام بوصفة حرفة أكثر منه مجال معرفي أو اختصاص بنظرياته و مناهجه. ففي مقال له بعنوان "صحافة العالم الثالث" يكشف فيه بعض الخدع الإعلامية التي تزيف الحقائق قبل أن ينهي المقال بقوله: "وإذا كنا نريد صحفيين موهوبين، و صحافة تتبوأ مركزها في عداد الصحافة العالمية الكبرى، يجب علينا أن نكون في البداية مجرد صحفيين متدربين."[67] و قد تميزت فترة عودته إلى الجزائر بعد الاستقلال بمقالاته الصحفية العديدة التى كانت تظهر في مجلة "الثورة الإفريقية" (Revolution Africaine)،[68] و بدى فيها أنه

---

[63] في قصته مع سيدنا عيسى عليه السلام

[64] مالك بن نبي، دور المسلم، ص. 52-53

[65] انعقد في الجزائر من 18 إلى 20 أكتوبر 2003

[66] انظر حوارنا مع د. أبو القاسم سعد الله في http://www.geocities.com/dr.azzi

[67] مالك بن نبي، من أجل التغيير، دار الفكر، دمشق، سورية، 2002، ص. 119.

[68] تم تجميعها في كتب مثل "بين الرشاد و التيه" و "رياح التغييير"

انخرط جزئيا في "الجو الثوري" الذي كان سائدا في تلك الفترة،[69] غير أنه كان على ما يبدو يحاول أن ينقل "الجو الثوري" إلى الجو "الثقافي" أو توظيف الثوري في الثقافي. و ما يؤشر إلى ذلك حماسه تجاه كل مسألة تتعلق بالثقافة مثلما نجد ذلك في مقاله بنفس المجلة بعنوان "نداء قسنطينة: مشكلة الثقافة." فهو يتحمس إلى فكرة "وضع برنامج إنماء ثقافي على مستوى الوطن،" لكنه يلح مرة أخرى على إعادة النظر في مفهوم الثقافة. و بتعبيره، فإن الثقافة ليست "أشكالا فلكلورية و حرفية" و ليست متوقفة على "العالم أو التقني" بل تمثل جو أو روح المجتمع في لحظة تاريخية معينة. يقول في مقاله:

لم تكن ألمانيا تملك سنة 1945 الآلات و لا الماركات و لا الدولارات و لا حتى السيادة القومية. لم تكن تملك سوى رأسمال واحد، لا يمكن تدميره. الحقيقة أنه لم يكن للقنابل الفوسفورية و لا الدبابات القدرة على أن تدمر ثقافة ألمانيا. و أنا لا أقول (علمها) و لا (تقنيها) و هما التباسان آخران يشوشان كذلك معنى الثقافة لأنهما يضعان هذه الأخيرة تحت سلطة المدرسة أو المصنع...

ذلك أن من أعاد بناء ألمانيا بعد سنة 1945 ليس العالم و لا التقني، فضلا على أن معظم العلماء و التقنيين مثل (فون براون) كان قد استولى عليهم الأمريكيون أو السوفيات و عدوهم عنائم حرب. إن من أعاد بناء ألمانيا هو الروح الألمانية.[70]

و ينسحب ذلك على حالة ثورة التحرير الجزائرية إذ يقول "لم يستطع الشعب الجزائري أن ينتزع استقلاله بالمعرفة التي تتمتع بها النخبة فيه، بل بالإدراك الذي وجد على المستوى الشعبي في وجه الاستعمار."[71]

و يميز ابن نبي بشكل واضح كما أسلفنا بين الثقافة و العلم فيقول:

الثقافة و العمل ليسا مترادفين. الثقافة تولد العمل دائما، و العلم لا يولد الثقافة دوما، و لا يمكن استبدال أحد هذين المفهومين بالآخر. إن هذا التمييز أساسي،

---

[69] انظر مثلا: مالك بن نبي، بين الرشاد و التيه، دار الفكر، دمشق، 1991.

[70] ،.م. س. ص. 52

[71] ن.م.س.ص. 55

أولا لدى وضع برنامج بهدف إلى الارتفاع بثقافة بلد ما إلى أعلى مستوى من مستويات الحضارة، و ثانيا، في فهم الظواهر الاجتماعية و السياسية ذات الأهمية الأساسية.[72]

وإذا كانت القضايا المطروحة في تلك المقالات، وكما يشير إلى ذلك عمر مسقاوي[73]، "قد تجاوزها الزمن و قلب التاريخ صفحاتها"[74] فإن الدافع الذي كان يحرك ابن نبي الانشغال الثقافي الذي يعتبره أصل الأزمة الحضارية في الجزائر و الرقعة الإسلامية على وجه العموم. و نجد أيضا، أن ابن نبي يدرك جيدا استخدام الإعلام في الدعاية و "الألاعيب السياسية و الاستعمارية" و تأجير الأقلام لإقصاء هذه الفكرة أو تلك أو تشويها أو صاحبها مثلما يشير مثلا في "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" إلى استخدام الاستعمار الإعلام حتى المسمي "بالتقدمي أو الإصلاحي" بتلك الفترة في تشويه فكرة القابلية للاستعمار.

إننا لو نظرنا إلى توقعات ابن نبي في شأن الثلث الأخير من القرن العشرين فإننا نجد أنه و على الرغم من اعتراضه على صفة "التشاؤم،" فإنه كان في نظرنا متفائلا أكثر مما أظهرته الأحداث. فقد وقعت أحداث بارزة بعد وفاته يرحمه الله والتي لا نحسبها في حبسان توقعاته و التي أثرت في المسار الذي سطره إلى حد كبير. فمحور الضعف ازداد ضعفا في الإرادة و محور القوة ازداد في الإمكان رغم استمراره في فقدان المبررات الحضارية. فقد شهدت الفترة التي أعقبت فترة ابن نبي قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية، و انهيار جزء من محور واشنطن – موسكو (أي المعسكر الشرقي)، و "الحقبة السوداء" في الجزائر، وظهور بعض النماذج التنموية "المتميزة" ذات الطبيعة الإسلامية مثل ماليزيا أو المبنية على نقل "النمط المادي النسبي" مثل الإمارات أو "التوفيقية" مثل تركيا، و أحداث 11 سبتمبر و غزو أفغانستان و العراق و حرب تموز بجنوب لبنان والهجوم على غزة، الخ. و إعلاميا، فقد تغير الوجه الإعلامي بشكل بارز منذ تلك الفترة مع انتشارا الفضائيات و ظهور القنوات الإخبارية المستقلة و تكنولوجيا الاتصال واتشار

[72] ن.م.س. ص. 54

[73] الذي عني بنشر تراث مالك بن نبي بعد وفاته.

[74] مالك بن نبي، من أجل التغيير، ص. 6

قنوات الاتصال التفاعلية الفردية و الجماعية، الخ.، ومع ذلك، فإن فكره كان كفيلا كما رأينا بوضع المشكلة في ميزانها الحقيقي و المتجدد.

وحسبي فإن مالك بن نبي كان سيثني على التجربة الماليزية التي حملت الكثير من عوامل النهضة وشروطها التي حددها ابن نبي، و ما يدل على ذلك الاحترام الذي يحظي به فكر ابن بني، و الذي لمسته شخصيا أثناء ترديسي بالجامعة هناك، في أوساط الدارسين و المثقفين بالبلد. إننا لو نظرنا إلى بعض أفكار القادة الماليزيين فإننا نجدها تتشابه مع الطرح البنابي إلى حد كبير. يقول محمد مهاتير[75]، الرئيس السابق لماليزيا على سيبل المثال:

إن قدرتنا على التوفيق بين حاجاتنا إلى الحداثة و بين تمسكنا بالدين الإسلامي ضمن جهود تنمية العالم الإسلامي هي من بين الانجازات المهمة في بناء حضارة إسلامية حديثة، و ذلك لأن بعض القيم الحديثة التي تثير النزاعات بين الحداثة و الدين في الغرب لا تثير نزاعات مماثلة في المجتمع الإسلامي و بالتالي يستطيع المسلمون قبول هذه القيم الحديثة التي لا تتعارض مع القيم الإسلامية كالتطورات العلمية و التكنولوجية والديمقراطية و الاستكشافات المعاصرة و الحرية الفردية المستمة بالتوازن و التي تخدم مصالح المجتمع.[76]

و يضيف:

بإمكاننا التوفيق بين القيم الحديثة و التعاليم الدينية من أجل تعزيز حياتنا الاسلامية الاجتماعية و جعل الدين قوة تشجع على الحداثة.[77]

ثم ينتقد الذات فيقول:

إن الدول الإسلامية المتخلفة لم تستغل الفرصة الذهبية لتحرير نفسها من التخلف عندما تجاهلت الثورة الصناعية التي ظهرت في أوربا، و نتيجة لذلك أصبحت

---

[75] المقام لا يسمح باستعراض فكره الذي نشر في موسوعة بعشر مجلدات نشرتها دار الكتاب المصري و دار الكتاب اللبناني.

[76] د. عبد الرحيم عبد الواحد، مهاتير محمد: عاقل في زمن الجنون، ميديا هب للدعاية و النشر، دبي، 2004، ص. 431-432

[77] ن..م.س. ص. 432

الدول الإسلامية أكثر تخلفا وأصبح اقتصادها الذي كان في أمس الحاجة إلى الاصلاحات لتتوافق مع التطورات المعاصرة ضعيفا وسط ثوراتها و موارها الطبيعية.[78]

و يضيف:

يجب علينا الشعور بالخجل إذا اسمررنا في الاعتماد على الآخرين للحصول على المواد الغذائية لأننا نملك من الأراضي الزراعية الخصبة ما يكفي لانتاج مختلف المحصولات الزراعية بالصورة التي تفوق احتياجات العالم الإسلامي. إن قيامنا بتوفير القدر الكافي من المواد الغذائية للأمة الإسلامية دون الحاجة إلى الاعتماد على الآخرين يعتبر من فروض الكفاية التي يجب علينا أدائها من أجل كسب رضا الله و تجنب سخطه و غضبه، لذلك فإن الجهود المبذولة لتطوير هذا المجال الزراعي في الوقت الحاضر تعتبر نوعا من أنواع الجهاد الذي يجب علينا جميعا المشاركة فيه.[79]

ويضيف:

إلى متى منفتخر بإنجازات المسلمين السابقين و إلى متى سنظل هكذا دون أي تخطيط أو جهود لاسترجاع مجد الأمة الإسلامية في مجال العلوم و المعرفة. إن ضعف الأمة الإسلامية غالبا ما يتم ربطه بعدم اتباع المسلمين لسنة المصطفى (صلعم)، لكن عندما ننظر إلى الأسلوب الذي يلجأ إليه المسلمون للتغلب على مشكلة عدم اتباع السنة نشعر الأسف الشديد لأنهم لا يركزون سوى على الأمور المستحبة لا على الأمور الواجبة، فمن الأمور التي يركزون عليها و يكثرون الجدال و الخلافات حولها هي مسألة اللحية و العمامة.[80]

و أخيرا يقول:

من خلال التجارب التي مرت بها ماليزيا في إدراة شؤون التنمية في الدولة لجعل هذه الدولة دولة إسلامية حديثة، أثق بأن الدول الإسلامية قادرة على أن تصبح دولا

[78] ن..م.س. ص. 432

[79] ن..م.س. ص. 433

[80] ن..م.س

حديثة فريدة من نوعها و مبنية على التعاليم الإسلامية المطهرة و ذلك شريطة تسليمنا بأنه يجب على الدول الإسلامية أن تصبح دولا إسلامية متطورة و متقدمة و متميزة.[81]

وأيا كان، فإن فكر ابن نبي ما يزال حاضر وحيا و يثير الكثير من الإثارة و النقاش شرقا و غربا لما يتميز به ليس فقط من حيث العمق و البساطة،[82] ولكن من حيث القدرة على القبض على جو المرحلة الاجتماعية و التاريخية و تحديد مسارها انطلاقا من مبررات حضارية واضحة. و قد أجريت العديد من درسات المقارنة بين فكره و فكر العلماء المعاصرين بالرقعة الاسلامية ومن ذلك دراسة زكي ميلاد عن محمد إقبال ومالك بن نبي و الذي اعتبر أن محمد إقبال و مالك بن نبي، و بإجماع المفكرين و الباحثين، من "مفكري النهضة الإسلامية في العصر الحديث وأن فكرهما ساهم بطاقة حيوية وإبداعية على تطوير الفكر الإسلامي المعاصر، "[83] ودراسة فلة الأحمر عن التشابه و الاختلاف بين فكر ابن نبي و السيد قطب،[84] ومقارنات أخري تخرج عن مجال هذه المقاربة.[85] يضاف إلى ذلك أن العديد من مؤلفات ابن نبي قد ترجمت إلى عدة لغات مثل الإنجليزية والمالاوية.

بقي لي أن أشير في النهاية أنه في يوم من أول سنة جامعية لي بجامعة الجزائر قصدت مكتبة الجامعة المركزية وكان الطقس يميل إلى البرودة بعض الشيء فانتابني صدفة إحساس بالاستياء ثم دخلت الباب الرئيسي للجامعة فوجدت وجوها شاحبة و أخرى بدون أثر يذكر ثم تقدمت إلى باب المكتبة فلاحظت سجادات مفروشة في واجهة المكتبة وعليها جمع متواضع من الجالسين في صمت مثير ومهيب فعرفت أن سوءا ما قد حدث فسألت أحد الواقفين الذي كان يتمعن في المشهد في حيرة و أسى عن الحدث فأعلمني بوفاة عالم القرن و شاهده، الجليل الأستاذ، مالك بن نبي يرحمه الله في ذلك

---

[81] ن..م.س. ص. 432

[82] رغم بعض الصعوبات في التركيب اللغوي المستخدم

[83] زكي ميلاد، مالك بن نبي و مشكلات الحضارة، دراسة تحليلية نقدية، دار الفكر، دمشق، 1998، 149-150.

[84] Fulla al-Ahmar, Sayyid Qutb and Malik Bennabi's Thought: Comparison and Contrast," in www.hoggar.org.

[85] Prophetic Experience of Revelation: Iqbal, Fazlur Rahman and Malik Bennabi (NA)

اليوم من 31-10-1973، و بقي ذلك اليوم مشهودا في ذاكرتي رغم أن الفرصة لم تسمح لنا بحضور دروسه في تلك الفترة التي كان مشحون بجو الصراع في الأفكار و لم تكن الظروف مواتية أن يجد فكره آذانا صاغية إلا من رحم ربك ناهيك أن يكون له صدى في الواقع إلا ما ندر، فقد كان فكره أسبق من زمانه و أوسع من رقعته فأدي الأمانة و نصح الأمة وسخر قلمه للرسالة فاستنار وأنار وكان بمثابة أمة اجتمع فيه الوعي الثاقب و الرؤية الشاملة نسأل الله تعالى أن يجعله في منزلة الصديقين و الشهداء والصالحين و حسن أولئك رفيقا، و الله المستعان.